صديق محيسي

« الرحيل في الليل »

للشاعر ابو ذكري

اذا كان شعر هذا العصر هو ذلك المسكون بالانهيار والندب والثورة والاغتراب ، او هــو القائم على الاحساس بالفاجعة ، فأن معادلا واحدا يتبقى لنـا بكـون آن تجربته يجب أن تدخل ضمن الصرخات الاخرى المطالبة بعالـم افضل داخل اطار النسبية الفنية .

ذلك المعادل هو موضوع الجدوى لاخلافيات الحاضر ، هل تصبح هذه الجدوى موضوعا للشعر ؟؟ هل يمكـن ان تكـون بديـلا لليأس الانساني الذي يصيب خارطـة للدنيـا شائكة ومعقدة على هذا النحو ؟

ان كل هذه التساؤلات الملهفة والقانطة تصل بنا في النهايةالى لاشيء موضوعي ومحدد ، كمـا انهـا يجب ان تكون نذلـك . فـاذا الفـن يومـا استطاع ان يوفر اجابات موضوعية ومحددة لجنون العالم وتمرده الجامح ، فانه حتمـا سيسقط في مستنقع العلوم العقلية التي حاولت تبرير القانـون الطبيعي برده الى العناصر الاولى .

اذن فالشعر العظيم هو ذلك الذي يجعلك في حالة استجواب دائم ومستمر دون ان تعرف ما جريمتك ، وهو ايضـا ذلك الذي يستحيل عليك معه معرفة مـا اذا كنت واقعـا تعيش ام حلمـا ، انه نسيـج الحلم والواقع معا ، او انه الغيبوبة والصحو في آن واحد .

ان الشعر المستيقظ دائمـا هــو الذي ينتج عن نجربة فنيـة متلقية اكثر من كونهـا مرسلـة (بكسر السين) ، وهو بذلك يعطـي احساسا بمادية الاشياء بشكلها (الفوتغرافـي) لا بشكلهـا الفاقـد للوعي ، اما الشعر الجامع لفقدان الوعي ومادية الاشياء فهو الحضور المتكامل للتجربـة الفنية ، وهـو في النهايـة الذي يشير بالحركـة دون ان يستنطقهـا .

من هنـا فأن نصف الاجابة التي يقدمهـا عمل فني ما عظيم ان يقابله النصف الاخر الصادر عن ناقـد ما عظيم او من قاريء ما به روح الشعر ، ورغما عن كل ذلك فأن كل الخطوات لن تتحقق بما يود ان يعطيه الشعر من اجابة ، ولكن خطوة واحدة نحـو هذه الاجابة هي التـي تتـم .

حرصت على هذه المقدمة التي اعتقـد انهـا مجرد محاولة لفهـم الشعر ، لفهمه لا بكونه ذلـك السالب من الابداعات الفنية ولكن بكونه سالبـا وموجبا في نفس الوقت من ضروب الفن . واذا كان الامر يطرح في النهايـة عالمـا بهذا المعنى ، فأن الحديث عن ديوان (الرحيـل في الليل) للشاعر (عبدالرحيم ابي ذكرى) يجب ان يكـون مـن ذلـك المنطلق .. لا كفيره من بعض شعراء جيلنا يناقش (ابي ذكرى) قضايا كالتغرب والحب والثورة بشكلهـا (الطوبغرافـي) الجامـد ، ولا كفيره يعيش موقف الشاعر كادعاء اجتماعي مشحون بالمنجهية والفرور، فهو بالكاد لا يقترب من هذه المساحة (النجسة). انه يتغرب باعتبار قضية التغرب موقفـا انسانيا مطعمـا ببذرة الشجاعة ، انه يحضر بيننا بكامل هيئته ، أنفه ، وعينيه واذنيه وقدميه ، ولكنه في نفس الوقت يبتعد عنا بداخله ومغاراته الخاصة التـي تنشب فيهـا معارك ضارية بين ما هو آت وما هو لاحق ، انـه يديـن العالم ويفرعـه ولكنه لا يتغرب تاركا العالم ليقوم بهذه المهمة ضده .

ان الغربة التي تجعل مـن صاحبهـا مسكينا ومسحوقا هي التي تجعل من التجربة الفنية ايضا تجربة مهاجمة ومطرودة من قبل شراسـة العالم ، ومن ثم فان مفهوم التغرب عند (ابي ذكرى) عندما يمـارس ذلـك يتحول الى مقولـة كاملـة يمكـن ان تبرهـن على ان صدقا ما يحدثفـي شعره .

على ان ذلـك يسوقنا الى ان (ابي ذكرى) لا يستخدم اللغة كذلك كوسيط اعمى يعبر الفيافي والجسور ويتوغل في ادغال مليئة بالظلمات والوحوش معتمدا فقط على حاسة اللمس ،وانمـا اللغـة في معظـم قصائده تعطي حجما هو نفس حجم الصدى الذي يخرج من جسم مـا ، فأن نقره على التجربة بكل زخمها لا يمكن ان يعطي الا ذات الرنـة التي تعكس لنـا بنيـة التجربة وامكاناتها وابعادها ، انـه لا يدق في طبل جلدي صغير مخنوق ليحاول عنوة واقتسارا ان ينتزع منه صوتا نحاسيا مصما للاذان ، فاللغـة كوسيط عند (ابي ذكرى) تمتلـك اشتراطات محددة ومقننة ضمن مجال التجربة الفنية ، فهـو في محاولاتـه ايصال فكرته لا يتجاوز مقدرات الكلمة والمفردة والجملة باعتبار أن ذلك يمكن ان يمنح هذه العناصر ثقافـة اكثر ورؤية اخصب واعمق ، ولكنه يبحث ويكتشف الى ان يمسك بالصورة في شكلهـا النهائي .

يقول (منير العكش) في دراسته (اللغـه الشعرية) في مجلة حوار العدد السابع في نقده سعيد عقل ونزار قباني « لعل هـذا هو سبب العلة التي وسمت اداءهما بالسطحية والمباشرة (مـع اختـلاف الدرجـة بينهمـا) بحيث احالت الزهرة والفراشة والحلمة والربيـع والغيمة والنهد والوشوشـة في شعرهمـا الى (هارمونات) انثوية ادمنا تعاطيها ، ودمى لغويـة لا علاقـة لها بالكـون والحياة ، ناسين ان ظنا من هذه المفردات لا يبدع جملة شعرية واحدة ، فليس كما هي الحال في الطبيعة مفردة حسنة بذاتها ! انمـا يتحدد الحسن والقبـح بالسياق والظروف التي تحيط بالمفردة » .

وبالمقابل وهذا ما اود التركيز عليه فان استنباط المفردات المعقدة

عبد الرحيم ابو ذكرى

المساكين . !

الامس يحمل العبيد في القارب للسخره
واليوم ساكت متخـوم
كلاهما بوابة تفضي الى الاخرى
باب الى باب .. ومن هناك للجحيم

* * *

الاصدقاء القدماء يدفعوننا للاحتضار
واصبحوا لا يلهموننا الرغبة والصمود
وعبثا نخدعهم بالابتسام
وبالعيون الضيقات ملؤها الشرود
صاروا مساكين مضيَّعين دونما اسرار
تضغط زرا فاذا الضحكة نفسها
القصة نفسها النظرة نفسها والانكسار
ينفتحون كالجمرة كالبلور كاللؤلؤ لحظة
ثم تموت النـار .

* * *

تفجؤنا البيوت اذ تبرز فجأة
في وجهنا بين الشجر
تفجؤنا الدهشة من رتابة المطر
والبحر اذ يطل دون سابق اتفاق
ندهش لحظتيـن
فيفقد الوجه صفاءه ورونقه
وتلصق الدهشة انفها بنا
وتبسط الرغبة يدها ذات الاصابع الملتصقة
فتنتهي حياتنا في الاخرين
يا مرحبا بالعمى والمعذبين والمنكسرين
هاكم سماءنا المحترقة .

* * *

نحبهم للحظتيـن
ثم نعـود بعدها للشرنقة .

من ديوان « الرحيل في الليل »

وذات الرنين المتضخم والتنفيب عنها بهوس يصل جلافـة المسعـى لا يمكـن ان يؤدي الى الشعـر العظيم .

ان (منير العكش) يطرح فضية ذات مسارين ، احدهما ان الشعـر بكونه طموحـا قائما علـى الموازنة بيـن الحلم والواقع لا يمكن ان يتحول بوسائط عاديـة الى يقيـن انساني عبر المباشرة وفي ذات الوقت وبكونه هذا الطموح المتوازن فـأن هذا الشعـر سيشبع موتـا ايضـا ان حاولنـا تركه لوسائط متضخمة ومدعية ومتجاوزة لحجـم التجربة وابعادها وتركيب رؤيا الشاعر صاحبها .

وكمـا اكد (العكش) فأن طنـا من المفردات المبتسرة والمدعية لا يمكـن أن يخلق صورة شعريـة واحدة مقنعـة .

فمن هذه الاشتراطات النقدية يمكن ان تتناول بعض اشعارالرحيل فـي الليل (لابي ذكرى) فأبي ذكرى رغمـا عـن انه يرفع رايات مسالمة في بعض تجاربه ، وهذا مـا يبرز بـأن حسا ثوريـا رومانسيا يمتلـك عليه نواصيه مما يجعله في معظم الاحيان يختشي ويدخل في اظافـره امـام ما يحدث في عالمه من احباط وخيبة ، الا انه في مواقع اخرى سرعـان ما يطرد عنه هذا الاختشاء ويحوله الى رفض واع مستمد من حده التأمل بالاشياء والممارسة .. وعلى امتداد عدة قصائد يبحث(ابي ذكرى) في شخوص المهاجرين والمراكب والبحار والطيور عن التـوازن واليقيـن الذي يصاب بالانهيار والمباغتة داخل اطار قضايا كالحـــب والهزيمة والضوضاء والدم .

قال طيـر حزيـن
افتحوا لي بوابتي المغلقة
افتحوا لي .. افتحوا لـي
دثروني بريشي القديم
زملوني بحلمي الهشيم
غير ان الطيور الكبيرة
الطيور الجسورة
نفضت ريشها ثم طارت
والسماوات خارت وغارت
وتلاطمت الانجـم
وتفصد منهما الدم
وتعطل بحر الظـلام
فوق ذاك الحطـام
وجم الطير في برده واعتداده
وتغطى بوحدته وانفراده
وطويـل سهـاده
حالما ان يطير ولكن بلا اجنحة
ان يسود الفضاء ولكن بلا اسلحة .
ان يطوف طويـلا
في بروج السماء طويـلا طويـلا

يحاول (ابي ذكرى) هنـا اقامة دلائل على ان العجز الانسانـي في العثور على هويـة الحرية الخصوصية للطموحات الفردية ضمـن اطـار الكـون انمـا ترتـد باستمرار بفعل الكوابح والاسوار التي تنمو وتتكاثر في زماننـا هذا من جراء الممارسات العسفية التي توجه ضد العالم بشلكيه الظاهري والباطني ، هـو في محالاته عبـر رؤيـا تجاوزية لصنمية الواقع حضوره البليـد انما يقرر كون ان الصفـاء

والاستقرارية واللهفة الى عدالة بعيد للعالم براءته وهدوءه لا يمكن ان تتحقق الا عبر هذا الصراع الذي يسود الساحة الانسانية ، فالمطالبة بفتح الباب ، وتكرار افتحوا لي ، افتحوا لي ، انما تؤكد بأن رفضا وضيقا شديدين يصلان حد اليأس قد بلغا بالشاعر في مساعيه نحو الانطلاق والتخلص والتحليق عبر اجواء نظيفة ،او انه البحث عن الحق في الحب والارادة والبوح ، ان مفردات (كالريش القديم) (والحلم الهشيم) ليست سوى الحنين الجارف للارادة والقدرة التي ضاعت او اغتصبت اغتصابا عندما كان الانسان يحضر بكامل اشتراطاته الاولى ، ككائن ممتلىء بالحرية والحركة والطموح.

كما ان صورة الطيور الكبيرة بجسارتها وتخليها والجو البركاني المزوج يتلاطم السماوات والدم والبحر والظلام انما تمهد لجو درامي عنيف تبرز من خلاله مواقف الاستسلام والعجز الذي يخيم على النفس ويجعلها تعيش ولكن بلا اجنحة ، وان تسود الفضاء ولكن بلا اسلحة ، غير انه ورغما عن كل هذه الخيبة الرافدة والمنطبة يبقى الحلم هو التيار الوحيد الذي يسود التجربة الفنية في مجمل عضوية القصيدة ، ويظل الشاعر منتظرا ان يتحول الحلم يوما ما الى قدرة ما فاعلة في اعادة التوازن بين الممكن والمستحيل ، وكما في هذه القصيدة فان (ابي ذكرى) في قصيدته (ليس عن الحب) يطرح من خلال (البواخر هدارة في اعالي البحار) و (نفاث الحدود) (واحزمة الطائرات) (وقتال الزمان القبيح) نفس الحنين وامنيات الاختراق والتدمير والوصول الى قضية التوازن النفسي ، وانه في بحثه عن (الجباه التي لم تطلها قدم) (والاماني التي بعد لسنا نراها) انما يلح ويلح في الخروج من هذه الغرف ذات الهواء الفاسد.

وحتى يقول
انظري ،
كلما نمنح الارض من قلبنا
تصبح الارض منفى لنا
ولاشواقنا

وينطبق ذلك ايضا على قصيدتي (في هذا المساء) و(الرحيل في الليل) اللتين تعطيان (رزما) مأسويا يقوم على الانتظار باعتباره موقفا يمكن ان يحقق الجدوى الانسانية التي اشرنا اليها في بداية هذه الدراسة .

وفي قصيدة (الرسو في كوكب الظلام) يطلب منا الشاعر الاصغاء الشديد لان نهاية الزمان قادمة :

اصغ !
نهاية الزمان قادمة
الى هنا حيث تبيع الشمس نهدها
وتحفر الانهار في عميق لحدها
ويتطاول الغوغاء والرعاع
وحيث تنهض الحيتان
بين الذي نريده في اخر الدنيا
وما نملكه من سفن يملؤها الدخان
(الى ان يقول)
العالم ، العالم يستمر الان في سقطته الرهيبة
ينتظر التهشم الاتي من الاجيال
(الى ان يقول)
يا زمن الملوك والاباطرة
يا زمن الحشود والسلاح والسماسرة
يا زمن العواهر المراهقات
يا زمن المساومات
ان كان هذا عصرنا ، فانني اهجم في ضراوة عليه
وانني من بعد (اذنكم)
ابول فوقه وازدريه
اصرخ فيه : لا
لو هجم التتار : لا
للنوم للراحة : لا
للابتذال : لا
وللسقوط : لا

للمرة الوحيدة يتخلى (ابي ذكرى) عن ثوريته الرومانسية التي احكمت قبضتها في عدة قصائد من الديوان تناولنا بعضها على سبيل المثال حيث كان يعتمد الانتظار والرجاء والتاسف نيابة عن العالم ليقيم مكانها توريه بها كثير من الشراسة حيث يبرز ذلك في النفس الشعري السريع المتلهف باستخدام كلمات مثل (اصغ) و(يا زمن يازمن) وتكثيف الاصرار باداة النفي (لا) ، حتى يبلغ القرف منه مبلغا يستأذننا فيه بمحاكمة هذا العصر اسوا وابشع محاكمة في سياق عدة اتهامات يوجهها الشاعر له ، وذلك بالتبول على معطيات القهر والابتذال التي تقف شاهدا على الخلخلة الاخلاقية السائدة .

وبينما يوجه ضربات ملاحقه ، ويمارس هجمات تدميرية مباغته ضد هذه الصيغ المشوهة المتآكلة يصرخ في النهاية .

لو هجم التتار : لا
للنوم للراحة : لا
للابتذال : لا
وللسقوط : لا

ان التحولات الجديدة في مفاهيم دلالة الطبيعة والماضي والحلم ، تخلط وتتفاعل فتنتج اصواتا والوانا ورموزا ذات قدرة عجيبة على تفجير الاحساسات وجعلها متأهبة لتقبل المزيد من الوعي بمشكلات (الانسان الردة) وبينما يتجه (ابي ذكرى) لتوليد رؤيا ضاربة في الرفض بشكليه الرومانسي الثوري والثوري الجامح احيانا ، يحاول ايضا توليد حركة وطاقة تعطي للقصيدة عنده محتوى حيا وخصبا، ثم فرزا تلقائيا وتصويبا محكما للاوعي بالذات ، واذا طرحنا ايضا معضلة الغموض في الشعر فاننا نجد في معظم قصائد الشاعر ان الغموض ليس ذلك التخبط (الديماجوجي) القائم على العشوائية ولا هو الحشد الصوري الذي يتم بلا تعينات وتحديد ، وانما نلقاه بنواتر بوعي متوهج ووائق .

غير ان (أبي ذكرى) وهو في تحوله الكبير يجتاز تصورا جديدا للاشياء ضمن دائرة الرؤية الشعرية ، فهو بعد حضوره من (موسكو) حيث اغترب جغرافيا لعدة سنوات استطاع ، وهذا ما نلمسه بالمقارنة الى اشعاره التي كتبها في مرحلته الطلابية ، ان يتجاوز اشكاله القديمة ذات البنى شبه التقليدية الى اخرى جديدة اخذت الكثير واكتسبت الاكثر من جراء قراءاته للشعر الروسي الحديث.

وبقراءة قصائد له ضمها ديوان (الرحيل في الليل) وهي التي سجلت في اعوام ٦٤ ـ ٦٥ او في الستينات عموما نجد ان تلك المرحلة تميزت بتجارب خصوصية ليست ذات وجدان جماعي ، ثم انها كانت تقع اسيرة لعنصري الزمان والمكان مما جعلها اقرب الى التوفيقية منها الى الايمانية التي توفرت في المرحلة السبعينية .

ولما كنت قد قصدت أن لا اقترب بالتحليل والكشف عن تجارب واشكال تلك المرحلة لانها تحتاج بدورها الى اقامة دعوى كاملة وتفتيت وتعدين تعطي عملياته نتائج نقدية معينة ، فانني اكتفيت بالتعرض متواضعا (لابي ذكرى) الذي يرحل في الليل بمجاديف موزونة وثابتة .